بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صلتى بالشعر الجاهلى قديمة ، ترجع إلى أكثر من عشرين سنة ، أيام كنّا نُحفَّظ المعلَّقات . فاستهوتنى كما لم يستهونى سائر الشعر الذى كنّا نحفَّظه . ثم تدرجت فى مراحل الدراسة ، وزاد محفوظى من الشعر العربى على اختلاف عصوره ، ولكن استهواء الشعر الجاهلى كان يزداد حتّى ليطغى على غيره . وكان شعوراً ساذجاً غير معلَّل ، وما كنت مستطيعاً تعليله ولو أردت .

ثم قرأت — قبيل دخولى الجامعة — كتاب الأستاذ الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى » ، ففتح أمامى آفاقاً فسيحة من التفكير ، ودفعنى إلى أن أنظر فى هذا الشعر نظر المتسائل عن قيمته وصحته ، وحملنى على أن أستقصى الموضوع من جذوره ، وأتتبعه من جميع أطرافه .

وصرت — كلما قطعت شوطاً فى دراستى الجامعية — أستبين جوانب جديدة من قيمة العصر الجاهلى وشعره ، وخطرهما فى دراسة الأدب العربى فى عصوره الإسلامية . فالعصر الجاهلى — فى حساب الزمن — أول عصور التاريخ العربى ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قومنا فى مراحل تطورهم ، ومواطن انتشارهم ، إذا لم نعرفهم فى موطنهم الأصيل وفى عصرهم الأول . ثم إن الشعر الجاهلى هو الأصل الذى انبثق منه الشعر العربى فى سائر عصوره ، وهو الذى أرسَى عمود الشعر ، وثبَّت نظام القصيدة ، وصاغ المعجم الشعرى العربى عامة ؛ ولست أفهم كيف نستطيع أن نحكم على ما فى شعر العصور الإسلامية من تطور وتجديد إذا لم نصل من أمر الشعر الجاهلى إلى مفصل نطمئن عنده .

ثم إن فى هذا الشعر الجاهلى وفرةً من القيم الفنية الأصيلة لم يحظَ بها كثير من الشعر العربى بعده : ففيه من خصب الشعور ، ودقة الحس ، وصدق الفن ، وصفاء التعبير ، وأصالة الطبع ، وقوة الحياة ، ما يجعله أصفى تعبير عن نفس العربى ، وأصدق مصدر للدراسة حياته وحياة قومه من حوله .

من أجل ذلك كله عزمت ، حين أنهيت دراستى الجامعية الأولى ، على مواصلة بحث الشعر الجاهلى ودراسته . فقضيت أربع سنوات أبحث فيها بعض هذا الشعر ، وبعض ما كتبه القدماء والمحدثون عنه وعن العصر الجاهلى عامةً ، وخرجت من هذه الدراسة برسالتى الأولى لدرجة (الماجستير) عن « القيان وأثرهن فى الشعر العربى فى العصر الجاهلى » . ومع ما بذلت من جهد ، وأنفقت من وقت ، وحقّقه البحث من نتائج ، فقد كنت أحس أننى أسير فى طريق لا أكاد أستبين فيها مواطئ قدمىَّ ، وأن علىَّ أن أعود أدراجى ، ثم أبدأ بداية جديدة لا أخطو فيها خطوة إلا بعد تثبُّت وتيقُّن .

وعدت ، وبدأت الطريق من أوله ، وقضيت أربع سنوات أخرى ، خرجت منها بهذا البحث لدرجة (الدكتوراه) ، وأنا مقتنع بأن هذا الموضوع الذى أبحثه هو الخطوة الأولى الصحيحة التى تسبق كل خطوة غيرها — فى سبيل دراسة الشعر الجاهلى ؛ وأن بحث هذا الشعر بحثاً مجدياً لا يتمُّ إلا عن طريق دراسة خارجية أولاً ، تعنى بمصادره جملة فى مجموعها ، وتبحث رواية هذه المصادر وتسلسلها ، ورواتها ومدى الثقة بهم ، ثم تتتبع المصادر الأولى التى استقى منها أولئك الرواة ، خطوةً خطوةً ، حتى تصل بين هؤلاء الرواة والشاعر الجاهلى نفسه . وكل دراسة قبل هذه إنما هى تجاوزٌ عن الأصل الأول الذى لابدَّ من البدء به ، وأحسب أن كثيراً من الخطأ الذى وقع فيه من ضعّفوا وسيلة حفظ هذا التراث الخالد ، ووهّنوا طريقة نقله وروايته ، إنما أتوا من هذا التجاوز والإغفال لنقطة البدء الصحيحة .

* * *

وقد بذلت أقصى الجهد فى أن أنهج نهجاً علمياً خالصاً: لا أميل مع هوى ، ولا أتعصب لرأى ، ولا أعتسف الطريق من أمامى اعتسافاً . بل لعل من الصواب أن أذكر أنى ، حين دخلت فى الموضوع ، لم يكن يحفزنى إلا الموضوع نفسه ؛ ولم يكن نصب عينىّ غاية بذاتها أتوخّاها وأرمى إلى إقامة الدليل عليها ، غير الغاية المجردة التى سينتهى إليها البحث الموضوعى وحده ؛ فقد كان قلبى مع هذا الشعر حين كنت أقرأه ، وكان عقلى عليه حين كنت أقرأ عنه ، فأردت أن أصل إلى يقين يجتمع عنده اقتناع العقل واطمئنان القلب معاً . ولم يكن أمامى سبيل لذلك إلا أن آخذ نفسى بتحرّى المنهج العلمى الدقيق ، والتزام حدوده التزاماً لا ترخّص فيه :

فشرعت أقرأ ، والغموض يحيط بى ، والحيرة تأخذنى من كل جانب . وقضيت نحو ثلاث سنوات لا أكتب فى الموضوع شيئاً غير ما كنت أدوّنه فى جزازات متفرقة من نصوص وأخبار وروايات ، تتصل بالموضوع فى صميمه ، أو تدور عليه من حوله . وكنت كلما قطعت شوطاً اتضح لى جانب ، فأضطر أحياناً إلى أن أقرأ مرة أخرى بعض ما كنت قرأت ، لأسجل منه — على ضوء فهمى الجديد — بعض ما كنت أغفلت . ولم أبدأ الكتابة إلا بعد أن جمعت من النصوص ما أتاح لى تمثُّل الموضوع تمثلاً كاملاً أو مقارباً .

ثم عدت إلى النصوص : أستكمل جمعها وتقييدها ، وأرتبها فى مجموعات ، ينتظم كلّ مجموعة منها موضوع واحد، وتلتقى الموضوعات فى فصول ، والفصول فى أبواب . ثم مضيت أفحص هذه النصوص ، وأدرسها دراسة دقيقة : تقوم على استقراء النص واستنطاقه ، واستشفاف دلالاته ، فى حدود ألفاظه ومراميه ، من غير تحميل له فوق ما يحتمل ، ولا توجيه وجهة بعينها لا تتضمنها ألفاظه .

ولم أكن أكتفى بوجه واحد من الأمر حين يكون له وجهان أو وجوه ، وإنما كنت أعرض كلّ وجه، وأقلّبه على جوانبه ، وأستوفى أدلته وشواهده ، ثم أقابل بين هذه الوجوه المختلفة وأناقشها، وأنتهى إلى ترجيح واحد منها حين يتيسّر الترجيح .

وإذ كانت نتائج البحث الأدبى والتاريخى عامةً تعتمد — فى أغلبها — على الروايات والأخبار والنصوص ، فإن من الطبيعى أن تجىء نتائجَ ظنيةً ترجيحيةً ؛ لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بجمع هذه الروايات والأخبار والنصوص ، واستقصائها ، ودراستها دراسةً قوامها : مقابلة بعضها ببعض ، ومناقشتها ، ونقد إسنادها ومتنها ، بحيث ينتهى كل ذلك إلى تغليب نص على آخر ، أو ترجيح رواية على غيرها ، أو تفضيل خبر على سائر الأخبار . ولا سبيل فى مثل هذه الأبحاث إلى اليقين القاطع ، والقول الفصل ، اللذين لا يتوافران إلا فى العلم التجريبى وحده ، حين يستطيع المرء ، فى معمله أو مختبره ، أن يعيد التجربة عمليًّا ليقيم البرهان على صحة ما يذهب إليه . ومن أجل ذلك تجنبت أن ألقى الأحكام إلقاءً عامًّا قاطعاً ، وإنما سقتها فى صيغ ترجيحية غالبة .

ومع هذا كله ، ففى البحث حماسة أحياناً ، وإلحاح على مسائل بعينها أحياناً أخرى ؛ ولكن ذلك كله إنما هو نتيجة طبيعية لاحقة ، وليس مقدمة مفتعلة سابقة . فإن من الطبيعى ، فى المنهج العلمى نفسه ، أن يندفع الباحث — فى غير مغالاة ولا إسراف — فى حماسته لبحثه وآرائه ، بعد أن يكون قد وصل — عن طريق هذا المنهج العلمى — إلى أدلة يقتنع بصوابها ، وحجج يطمئن إلى سلامتها ، فيؤكدها كلما سنحت له فرصة للتأكيد ، ويلحُّ عليها كلما أمكنه الإلحاح . وأحسب أن الفرق واضح بين الحماسة البصيرة للرأى حين يصل إليه المرء بعد بحث وتحرٍّ وتحقيق ، وبين التعصب الأهوج للفكرة التى يدخل المرء بها فى بحثه ابتداءً . فالحماسة الأولى من أمارات الحياة السليمة فى البحث والباحث ، والتعصب الثانى من علامات عجز الفكر وضيق الأفق . ومن هنا أرجو ألا أبعد عن الحق حين أقول : إن كل رأى فى هذا الكتاب قد قامت من بين يديه وفرة من النصوص قادت إليه وانتهت به ؛ وأن النص هو الذى وجَّه البحث إلى ما فيه من آراء ، وليست الآراء هى التى وجهت البحث إلى النصوص : يجتلبها ، ويقتنصها ، ويستكثر منها ، ويقسرها قسراً لما يريد .

* * *

والباحث في العصر الجاهلي يلقى عناء كبيراً من مصادر بحثه ، وذلك لأن الحديث عن الجاهلية — في المصادر العربية — لم يكن يُقصد لذاته : فتُستَبرَ أغواره ويلمَّ شتاته ، وإنما كان يقصد لغيره من موضوعات العصور الإسلامية التي كان المؤلفون يكتبون فيها ، فيستطردون للحديث عن الجاهلية : للتمثيل والاستشهاد ، أو للمقابلة والموازنة ، أو للوعظ والإنذار ، أو للتمهيد بين يدى حديثهم الأصيل تمهيداً موجزاً يدخلون منه إلى الحديث عما يقصدون . فيكاد يكون حديثهم عن الجاهلية حديثاً عابراً ، منثوراً نثراً متباعداً في تضاعيف كتبهم وثنايا رسائلهم . ومن هنا كان لا بد للباحث في العصر الجاهلي من أن يقرأ الكتاب العربي قراءة متمعنة دقيقة ، يجرُدُه فيها جرداً كاملاً من عنوانه حتى ختامه ، لا يغنيه عن ذلك تبويب الكتاب ، ولا هذه الفهارس الدقيقة الشاملة التي يصنعها المحدثون للطبعات الحديثة من تلك الكتب القديمة . وقد يقرأ الدارس الكتاب ثم لا يخرج منه بشيء ، أو يخرج بخبر أو خبرين لعله كان قد استخرجهما من كتاب غيره ، فلا يضيفان إليه جديداً .

ولا يقف بحثنا عند حدود الجاهلية ، وإنما يتجاوزها حتى يشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وذلك لأننا ندرس الشعر الجاهلي في الجاهلية نفسها ، ثم نتتبعه خلال هذه القرون حتى نصل به إلى مرحلة التدوين العلمي عند رجال الطبقة الأولى من الرواة العلماء ، ثم تلاميذهم من رجال الطبقة الثانية والثالثة . ومن أجل ذلك اقتضى هذا البحث دراسة تلك القرون ، والرجوع إلى مصادرها ، بالإضافة إلى دراسة الجاهلية نفسها .

وقد ألحقنا بآخر هذا البحث جريدة مفصلة فيها أسماء المؤلفين مرتبةً على حروف المعجم ، وسنوات وفياتهم ، وأسماء كتبهم وطبعاتها التي رجعنا إليها .

* * *

أما أساتذتي الدكتور شوقي ضيف المشرف على هذا البحث ، والدكتور إبراهيم سلامة ، والأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور عبد اللطيف حمزة ، والأستاذ السباعي بيومي ، أعضاء لجنة المناقشة — فلهم الشكر صادقاً كفاء

ما أنفقوا من وقت فى قراءة هذا البحث ، ومن جهد فى مناقشة صاحبه ، وكفاء ما حبَوْنى به من رعاية وتشجيع ، وأسبغوه على البحث من ثناء وتقدير .

أما أخى الصديق الأستاذ محمود محمد شاكر فإن فضله لا يقتصر على هذا البحث وحده ، فلطالما اغترفت من علمه ، وأفدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحه وتوجيهه ؛ وما أكثر ما كان ينفق من وقت يناقش معى فيه بعض وجوه الرأى ، ويبصّرنى بما لم أكن لأصل إليه لولا غزير علمه وسديد نصحه . ولقد كان له أكبر الفضل — بإخائه وعونه الكريم — فى حثّى على مواصلة العمل، وفى إخراج هذا البحث فى كتاب يتداوله القرّاء .

• • •

وبعد :

فإن هذا البحث — كما ذكرت — هو الخطوة الأولى فى سبيل دراسة هذا الموضوع ، وأرجو أن تتلوها خطوات ، تكمّل ما فيه من نقص ، وتقوّم ما قد يكون فيه من عوَج ، وحسب هذا البحث أنه شقّ الطريق ، وألقى فيها من المعالم ما يهدى السالكين ، وحسبى منه أنى أخلصت النية ، وبذلت أقصى الجهد . ومن الله الهداية وبه التوفيق .

ناصر الدين الأسد